القدس تهوّد جهاراً

فى الثانى من سبتمبر ١٩٩٧ دعيت من قِبَل (مجمع البحوث الإسلامية بلندن) للمشاركة فى مؤتمره العلمى الأول عن (القدس) وإلقاء كلمة فيه بهذه المناسبة . فحضرت وقلت فى بداية كلمتى :

فى هذه السنة (١٩٩٧م) تتزاحم ذكريات مهمة وبارزة تخص قضيتنا الأولى : قضية القدس وفلسطين .

فى هذه السنة تمر ذكرى مرور قرن (١٠٠ سنة) على عقد المؤتمر الصهيونى الأول فى (بازل) بسويسرا برياسة (هرتزل) عام ١٨٩٧م ، وظهور المؤسسة الصهيونية العالمية .

كما تمر ذكرى (٨٠) ثمانين عامًا على مرور وعد بلفور المشؤوم بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين (نوفمبر ١٩١٧م).

وكذلك ذكرى نصف قرن على قرار تقسيم فلسطين (١٩٤٧م) الذى كان تمهيدًا لقيام إسرائيل (١٩٤٨م) .

وأيضًا ذكرى مرور ثلاثين سنة على احتلال القدس والضفة الغربية وغزة سنة (١٩٦٧ م) بعد حرب الأيام الستة المعروفة فى ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ م .

وأخيرًا ذكرى مرور عشرين عامًا على زيارة الرئيس السادات إلى إسرائيل (١٩٧٧م)، التى مثلت بداية الخلل فى وحدة الموقف العربى تجاه إسرائيل .

ونحن الآن نجنى ثمار هذه الأحداث المريرة ، وأشد هذه الثمار مرارة : محاولة إسرائيل « تهويد القدس » العربية الإسلامية ،

وفق تخطيط معلوم ، ونهج مرسوم ، وعلى مرأى ومسمع من أكثر من مائتين وخمسين مليونًا من العرب ، ووراءهم أكثر من مليار من المسلمين . وعلى الرغم من قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولى . وبمساندة وتأييد من أمريكا القوة الأولى والوحيدة ، والمتألهة فى العالم اليوم .

ولا تزال إسرائيل تتابع (حفرياتها) تحت المسجد الأقصى ، وتنشئ مدينة سياحية تحته ، فيما زعموا ، وقد سمعت فى مؤتمر القدس المذكور من الأخ الشيخ رائد صلاح ، رئيس بلدية أم الفحم فى فلسطين المحتلة ، ورئيس الحركة الإسلامية هناك ، أنه أتيح له الاطلاع على هذه الحفريات ، ورأى المسجد الأقصى مهددًا بالانهيار فى وقت غير بعيد .

وهذا يؤكد ما قلته وأعلنته مرارًا من أن إسرائيل تعرف متى ينهار المسجد ، وهى محددة له وقتًا معينًا ، توقع فيه ذلك وتعلنه ، وهى ستختار الوقت المناسب لهذا الفعل ، بحيث يكون العرب والمسلمون مشغولين فى هموم أخرى تلهيهم عن هذا الخطب الجسيم ، أو تجعل احتجاجهم عليه مجرد صراخ لا يرد حقًّا ، ولا يقاوم باطلاً ! ويكون العالم أيضًا مشغولاً بخطب آخر ، قد تكون إسرائيل أو الصهيونية العالمية هى صانعته ومدبرته .

وهكذا تتعرض القدس العربية الإسلامية : مدينة المقدسات ، وأرض النبوات ، وبلد الإسراء والمعراج ، ودار المسجد الأقصى ، الذى بارك الله حوله والذى هو عند كل مسلم بمنزلة سواد العين ،

وسويداء القلب . تتعرض هذه المدينة للتهويد المبيَّت ، والانتهاب المخطط ، والالتهام المدبر ، ويتعرض المسجد الإسلامى المعظم للخطر المؤكد ، بما يقع تحته وحوله من حفريات مستمرة ، تهدف فى النهاية إلى إزالته ، وإقامة هيكل اليهود المزعوم على أنقاضه .

الهدف واضح وصريح ، والخطة معلومة ، والعمل معلن ، اتفق عليه اليهود جميعًا ، أيا كان انتماؤهم واتجاههم : دينيين كانوا أم علمانيين ، من حزب (الليكود) الصريح المتعجرف ، أم من حزب (العمل) المناور المراوغ .

ومع هذا لازلنا نركض ونسابق الريح ، سعيًا إلى سلام بائس ، لا يقيم لفلسطين دولة ، ولا يعيد إليها مشردًا ، ولا يرد إليها قدسها وعاصمتها ، ومع هذا الغبن الفاحش ، والظلم المبين ، تركل إسرائيل ، ويركل بنيامين نتنياهو السلام المزعوم بقدميه ، رضى القتيل ولم يرض القاتل !

وهكذا كلما تنازلنا عن حق مؤكد لنا ، أصرت إسرائيل على باطل مدّعى لها ، وهى فى كل يوم تأخذ منا ما تريد ، ونحن لا نأخذ نقيرًا ولا قطميرًا ، إلا وعودًا مزعومة ، أشبه بما قال الشاعر :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ... وما مواعيدها إلا الأباطيل
فلا يغرنك ما منّت وما وعدت ... إن الأمانىّ والأحلام تضليل

بل الواقع أن إسرائيل فى عهد الليكود أمست تضن علينا حتى بالوعود ، وإن كانت سرابًا . فهى تتبجح بالرفض المطلق ، ولا تخاف ولا تستحى . وقد قال رسول الإسلام ﷺ :« إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت !. متفق عليه .

إن إسرائيل تستكبر وتبغى فى الأرض بغير الحق ، لأنها لم تجد من يردها ويقفها عند حدها .

فهى تريد سلامًا من منظورها هى ، ووفق مصلحتها ، وتبعًا لاستراتيجيتها التوسعية ، وأطماعها الإقليمية ، المتمثلة فى إسرائيل الكبرى : من الفرات إلى النيل ، ومن الأرز إلى النخيل ! ولكنها قد تخفى ذلك أو تسكت عنه فى وقت ما ، تبعًا لسياسة (المراحل) التى تجيدها إسرائيل من قديم .

ولقد ساعدت الظروف العالمية والإقليمية والمحلية القائمة اليوم ، إسرائيل على هذا التجبر والطغيان الذى نشهده ، وتتمثل تلك الظروف فى الاستسلام الفلسطينى ، والعجز العربى ، والوهن الإسلامى ، والغياب العالمى ، والتفرد الأمريكى ، والتحيز الأمريكى أيضًا .

ولكن هل تضمن إسرائيل أن تبقى هذه الظروف المساعدة لها باقية إلى الأبد ؟ وهل أخذت صكًا على القدر الأعلى أن تبقى الرياح فى الاتجاه الذى تهوى ؟ .

نحن بقراءة سنن الله فى الكون ، وقراءة التاريخ من قبل ، واستقراء الواقع فى عالمنا : نؤمن بأن الدنيا تتطور ، وأن العالم

من حولنا يتغير ، بل يتغير بسرعة غير محسوبة ولا متوقعة ، كما رأينا فى انهيار الاتحاد السوفيتى ، وفى ظهور الاتحاد الأوروبى ، وفى ظهور قوى اقتصادية جديدة فى العالم . وهو ما عبر عنه الناس عندنا من قديم فقالوا : دوام الحال من المحال . وما عبر عنه القران فى صورة سنة كونية عامة ، فقال : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١٤٠). قال ذلك فى أعقاب غزوة أحد التى انكسر فيها المسلمون في عصر النبوة ، وقدموا فيها سبعين من أغلى شهدائهم ، بعد انتصار مبين قبلها فى غزوة بدر ، التى سمى القرآن يومها : ﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ (الأنفال: ٤١)

الاستسلام الفلسطينى :

إن الاستسلام الفلسطينى الذى دفع إليه تسرب الوهن إلى بعض الأنفس ، واليأس إلى بعض القلوب والشعور بالمرارة من تخاذل الكثيرين من العرب ، وارتماء بعضهم فى أحضان الأمريكان ، وسقوط السوفيت ، والإحساس بالرعب من الوحش الأمريكى ، وتحيزه الدائم لربيبته إسرائيل ، واستطالة طريق الجهاد ، وكثرة تكاليفه ، وضحاياه ، كل أولئك سارع بدفع عدد من القادة الفلسطينيين إلى قبول (السلام الأعرج) الذى عرضته إسرائيل ، تحت عنوان (الأرض مقابل السلام). يعنون أن تتخلى إسرائيل عن الأرض الفلسطينية والسورية واللبنانية التى احتلتها عام (١٩٦٧ م) فى مقابل سلامها ، بحيث لا يناوشها أحد ولا ينازعها . باختصار : هذا القول يعنى : أرض العرب فى مقابل سلام إسرائيل .

أى يردون إلينا أرضنا المحتلة لينعموا بالسلام ، معنى هذا : أن الأرض التى أخذوها بقوة السلاح وبالدم والعنف أمست ملكا لهم ، وأمسى لهم الحق عليها ،وهم يتنازلون عنها ليفوزوا بالسلام!

وقبل العرب المفاوضات على هذا الأساس الأعوج ، وأعطوا إسرائيل السلام ، ولكنها لم تعطهم شيئًا ، باعت لهم (الترام)! كما تحكى الحكايات عن القاهرى الماكر والصعيدى الساذج .

ما معنى سلام يترك المشاكل الكبرى الأساسية كلها معلقة :

مشكلة القدس .

مشكلة الاستيطان .

مشكلة اللاجئين .

مشكلة الحدود .

هذه المشكلات الخطيرة معلقة مؤجلة ، لا تبحث إلا فى نهاية المفاوضات ، ولم يسأل أحد : وإذا لم نتفق عليها فى النهاية فماذا يكون الموقف ؟

والحقيقة أن هذه المشاكل كانت معلقة ومؤجلة عند العرب ، ولم تكن مؤجلة ولا معلقة عند إسرائيل ، فقد أعلن إسحاق رابين عشية توقيع الاتفاق فى (أوسلو) قائلا ومصرحًا : جئتكم من أورشليم (القدس) العاصمة التاريخية والأبدية والموحدة لشعب إسرائيل !

وكذلك لم يؤجل موضوع الاستيطان ، بل ظل مستمرًا فى أكثر من مكان فى فلسطين ، إلى أن فجرته المحاولة الصريحة

الجريئة بإنشاء مستوطنة (هارحوما) فى جبل أبو غنيم وكذلك فى رأس العامود فى القدس الشرقية ، ولا يزال الاستيطان يتوسع وينمو ، فى حين لا يسمح للفلسطينيين أهل البلد وأصحاب الدار ، بأى نمو أو توسع .

وكم رأينا بأعيننا البيوت تهدم على مرأى ومسمع ، لأن إسرائيل لم تسمح بها . ولن تسمح يومًا .

إن الفلسطينيين اليوم أدركوا أن إسرائيل تخدعهم وتلعب بهم ، وأن انسحابها الجزئى المحدود جدًا لم يكن إلا خدعة كبيرة ، وأنها تستطيع أن تعود إلى احتلال المواقع التى أخلتها فى ساعات قلائل ، وأن زمام الأمور كلها بيديها ، وأن لا حول لهم ولا طول ، وأن السلطة التى منحتها إسرائيل لهم سلطة وهمية ، هدف إسرائيل منها : أن تضرب الفلسطينيين بعضهم بعض ، وأن تسلط بعضهم على بعض ، وأن يكون بأسهم بينهم شديدًا ، لتقف هى متفرجة على صراع الأخ مع أخيه ، وأن بندقية الفلسطينى لم تعد موجهة إلى صدر غاصب أرضهم بل إلى فلسطينى مثله . وهذا مراد إسرائيل .

ولما لم يتحقق لإسرائيل كل ما تريد ، طلبت بصراحة من السلطة : تدمير حماس ، وتحطيم كل قوة لها ، وإعانة إسرائيل عليها . وهذا شرط أساسى وضرورى اليوم للعودة للجلوس على مائدة السلام المزعوم .

إن إسرائيل ماضية فى خطتها وإصرارها على تهويد القدس ، وهى خطة ليست بنت اليوم ولا وليدة الأمس . وقد حددت هدفها ،

ورسمت سياستها ، ومارست تنفيذها ، بمحاصرتها بالمستوطنات ، والعمل الدائب على تفريغها من أهلها العرب مسلمين ومسيحيين ووضع العوائق والعقبات فى سبيل نموّهم وامتدادهم عمرانيًا وبشريًا ، والوقائع كلها شاهدة قاطعة ، والعرب لا يملكون إلا الشجب والاحتجاج والاستنكار ، وهذه كلها لا تجدى فتيلاً ، ولا تحيى قتيلاً ، ولا تشفى عليلاً . لقد احتج العرب على مستوطنة أبو غنيم ، واحتجوا على احتلال بيت رأس العامود ، ولكن احتجاجاتهم ذهبت أدراج الرياح .

لم يبق من شىء تخافه إسرائيل إلا الشباب الذين حملوا رؤوسهم على أكفهم ، بائعين أرواحهم لله ، لا يبالون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم ، من الذين أقلقوا إسرائيل بعملياتهم الاستشهادية ، وقذفوا الرعب فى قلوب أبنائها ، وأطاروا النوم من أجفانهم ، ولا يفل الحديد إلا الحديد .

لهذا قامت إسرائيل - على أعلى مستوى فيها - بالانتقام من هؤلاء الأبطال ، فقتلت الدكتور الشقاقى ، والمهندس يحيى عياش ، وشرعت أخيراً فى قتل خالد مشعل ، بسلاح كيماوى متطور ، وفى بلد معاهد لهم ، هو الأردن ، ليعلم الجميع أن هؤلاء قوم لا عهد له ولا ذمة ، كما قال تعالى فى أسلافهم : ﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ (الأنفال: ٥٦).

وهم من قديم يقتلون كل من يقف فى طريقهم أو ينتقدهم ، أو يكشف أحابيلهم ، من مدنيين وسياسيين ومفكرين ، فقد قتلوا اللورد موين ، وقتلوا الكونت برنادوت ، وقتلوا المفكر الإسلامى الدكتور إسماعيل الفاروقى وزوجته أشنع قتلة ، هذا ما تقوله الوقائع ، ولا يزالون يهددون ويتوعدون كل من يقول كلمة لا تعجبهم ، حتى الرسائل الأكاديمية أو البحوث العلمية ، التى تتحدث عن مذابح النازية معهم ، وتحاول أن تبين حجمها الحقيقى ، لا يسمح لها أن تبرز وترى النور ، حتى إن كاتبيها يتعرضون للمساءلة والمحاكمة بله المضايقة والإيذاء والتهديد ، وآخرهم المفكر الفرنسى المعروف روجيه جارودى .

إن الذين ظلوا يحملون روح الشعب الفلسطينى المجاهد ، وعناد مقاومته ، واستعداده للتضحية ، إنما هم تلك الفئة المؤمنة التى وهبت حياتها وكل ما تملك من نفس ونفيس ، لتحرير الأرض المقدسة ومسجدها الأقصى . إنما هم أبناء حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وإخوانهم وأعوانهم فى (الجهاد) المقدس ومن يشد أزرهم من أبناء الشعب . إنهم الذين باعوا أرواحهم لله ليشتروا الجنة ، ولقد ابتلوا وأوذوا وسجنوا وعذبوا فى سبيل الله ، فصبروا وصابروا ورابطوا ، ﴿ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٦،١٤٧).

وظنى أن الاستسلام الذي جر إليه الفلسطينيون لن يستمر ، فقد طفح الكيل ، وبلغ السيل الزبى ، وأوشك الصبر أن ينفد ، وحينئذ لا يكون أمام هؤلاء إلا عودة الانتفاضة الشاملة أشد وأقوى مما كانت ، ويفرض الواقع الجديد نفسه ، وتنضم السلطة إلى الشعب ، ويقف الجميع فى وجه العدو صفًا واحدًا كالبنيان المرصوص . وصدق الشاعر :

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب فما حيلة المضطر إلا ركوبها !

العجز العربى :

أما العجز العربى الذى نراه ونلمسه ، فليس هو بالقدر الذى لا مهرب منه . إنما هو أمر طارئ لابد أن يزول .

وأظهر أسباب هذا العجز هو التفرق ، الذى أصاب دول العرب ، منذ شرخ (كامب ديفيد) واتفاقيته التى أخرجت الشقيقة الكبرى : مصر ، من المعركة المصيرية للأمة ، وقد استغل فى ذلك : تخلى العرب عن مصر ، وعدم وقوفهم معها ومعاونتهم لها ، وقد خاضت أربع حروب من أجل فلسطين كلفتها الكثير من المال والرجال .

وزاد هذا التفرق بعد (حرب الخليج) الثانية ، التى مزقت العرب شر ممزق ، وخسروا فيها تضامنهم ووحدة مواقفهم ، كما خسروا أموالهم ، حتى استدانت البلاد الغنية ، بل خسر كثير منهم حرية إرادتهم واستقلال قرارهم ، إلى حد احتلال أراضيهم . كان هذا كله بضربة واحدة ـ ضربة معلم كما يقال ـ وكان الرابح

الواحد فى ذلك هو إسرائيل ، وأمريكا وحلفاؤها ، الذين تخلصوا من أسلحتهم القديمة فى أرضنا ، وجربوا أسلحتهم الجديدة فى شعوبنا ، وهدموا ديارنا بفلوسنا ، وبطلبنا ، وخربوا بيوتنا بأيدينا ، ليعودوا فيشيدوها من جديد بأموالنا أيضًا .

وقد انقسم العالم العربى فى هذه القضية انقسامًا لم يحدث مثله فى قضية أخرى ، لما فيها من تداخل وتعقيد ، فإن الذى يرفض التدخل الأجنبى كأنما يؤيد الاحتلال العراقى للكويت ، والذى يقبل التدخل العسكرى الأمريكى والغربى لتحرير الكويت كأنما يؤيد تدمير العراق ، ويساند الاحتلال الأجنبى للمنطقة !

وضاع الرأى الوسط الذى ينكر الاحتلال ويطالب بالجلاء ، كما ينكر التدخل الأجنبى المكثف المسيطر ، سواء بسواء . وهو ما نادت به مجموعات من أهل العلم والفكر من المصريين نشروا بيانهم على صفحات الأهرام وغيره (ضمن المقال الأسبوعى للكاتب الكبير الأستاذ فهمى هويدى).

المهم أن العالم العربى منذ ذلك اليوم المشؤوم قد تصدع بنيانه ، ولم يجد من يرمِّمه إلى اليوم ، رغم مناداة كثير من العقلاء بوجوب تخطى هذه الأزمة ، التى لا يجوز أن تحكمنا عقدتها أبد الدهر ، وهو ما يفرضه الدين والقومية ، والأخلاق والمصلحة المشتركة ، بل ما يفرضه وجودنا ومصيرنا ، إن أردنا أن يكون لنا وجود ومصير فى هذا العالم ، الذى لم يعد فيه مكان للكيانات الصغيرة ، ولا للكيانات المتفرقة والمبعثرة ، ولهذا رأينا

المتفرقين تاريخيا يتحدون ويتناسون الماضى ونزاعاته وحروبه وثأراته ، استجابة لنداء المصلحة المتبادلة ، كما هو شأن الاتحاد الأوروبى .

ولكننا نرى اليوم بشائر لا يمكن تجاهلها ، وهى وقوف العالم العربى كله ضد الولايات المتحدة التى تريد توجيه ضربة عسكرية للعراق ، إن هذه الوقفة العربية ضد التألّه الأمريكى ، يدلنا على أن هذه الأمة لن تموت .

الوهن الإسلامى :

وإذا كان العجز العربى عرضًا لا يدوم ، فكذلك الوهن الإسلامى ، إنه أمر يعرض للأمم كما تعرض الأمراض للجسم الصحيح ، لا يلبث أن يعالج منه ويشفى .

وكم أصابت هذه الأمة من آفات وأمراض ، فى أدوار من التاريخ ، حسب أعداؤها أنها لن تبرأ منها ، وأنها هى القاضية والقاتلة . ولكنها خرجت منها كما يخرج الذهب من النار ، أشد صفاء ، وأكثر لمعانا .

وحسبنا من ذلك : غزوات الصليبيين من الغرب ، وهجمات التتار من الشرق ، فى فترة ضعف من الأمة ، وتفرق بين أقطارها ، وغفلة من حكامها ، حتى سقطت قلاعها أمامهم أول الأمر ، وتحكموا فى رقاب أهلها ، وأقاموا لهم ممالك وإمارات ، وبقى (المسجد الأقصى) أسيرا فى أيدى الصليبيين (تسعين عامًا) كاملة .

ثم هيأ الله رجالاً لم يكونوا من جنس العرب ، ولكن عرّبهم الإسلام ، منهم التركى مثل عماد الدين زنكى ، وابنه نور الدين محمود ، والكردى مثل صلاح الدين الأيوبى ، وغيرهم مثل سيف الدين قطز ، والظاهر بيبرس من قادة المماليك .

فعاد الصليبيون يجرون أذيال الخيبة ، ودخل التتار فى دين الله أفواجا .

وفى العصر الحديث احتل الاستعمار الغربى الزاحف ديار الإسلام ، من إندونيسيا إلى المغرب ، وحسب جنرالاته العسكريون ، وزعماؤه السياسيون ــ ومن ورائهم المبشرون والمستشرقون ـ أن هذه الديار قد دانت لهم إلى الأبد ، حتى إن بعضها اعتبروها جزءاً من أوطانهم كما فى الجزائر . ثم ما لبث الإسلام الذى يدينون به أن أيقظهم من رقود ، وحركهم من جمود ، ونفخ فيهم من روحه ، فكانت (معارك التحرير) فى كل بلد ، وكان للدين القدح المعلى فى الإيقاظ والتحريك والتجنيد والتجميع ، وآخر ملحمة مع الاستعمار كانت ملحمة ثورة التحرير الجزائرية من سنة ١٩٥٤ حتى نالت استقلالها ١٩٦١ .

لقد نبهنا الرسول المعلم على سبب الوهن الذى يصيب الأمة ، وبين أنه سبب نفسى وأخلاقى ، وذلك فى الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود عن ثوبان « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق ، كما تتداعى الأكلة على قصعتها ، قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء

كغثاء السيل ، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهْن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت».

هذا هو سر الوهن وعلّته : حب الدنيا وكراهية الموت . فإذا غيرت الأمة ما بنفسها ، ولم تعد الدنيا أكبر همها ومبلغ علمها ، ولم تعد تبالى : أوقعت على الموت أم وقع الموت عليها ، هنالك يغير الله ما بها ، ويبدل حالها من ضعف إلى قوة ، ومن ذل إلى عزة ، ومن هزيمة إلى نصر وتمكين .

وأرى بشائر ذلك قد بدت وتجلت فى هذه الصحوة الإسلامية المعاصرة التى جددت العقول بالمعرفة ، والقلوب بالإيمان ، وأثرت فى شباب الأمة ـ ذكورًا وإناثًا ـ تأثيرًا يشبه تأثير الغيث فى الأرض الهامدة ، حتى إذا نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

وقد بينا فى دراسة سابقة لنا [1] :

أن الأمة المسلمة تملك مقومات القوة والرقى والسيادة من : الثروة البشرية (مليار وثلث من البشر) والثروة المادية (من سهول وجبال ومعادن وبحار وأنهار . . إلخ) والثروة الحضارية من خلال موقعها فى ملتقى القارات ، ومنبت الحضارات ومهبط الرسالات .

---

(١) رسالة المبشرات بانتصار الإسلام ، وهى الرسالة الثامنة من (رسائل ترشيد الصحوة).

فى أرضها نبتت الحضارات الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية والفارسية . . .) بالإضافة إلى الحضارة الإسلامية العربية . وفيها نشأت الرسالات السماوية الكبرى : اليهودية والمسيحية والإسلام .

هذا إلى الثروة الروحية الكبرى ، التى تتميز بها دون الأمم ، فهى وحدها التى تملك رسالة الشمول والتوازن والعمق ، المتمثلة فى رسالة الإسلام .

وقد بدأت بعض شعوب هذه الأمة وأقطارها فى النهوض ومحاولة كسر حاجز التخلف الذى وضعت فيه الأمة زمنا طويلا ، وإن مع اليوم غدًا ، وإن غدًا لناظره قريب .

التفرد الأمريكى :

وأما التفرد الأمريكى بالنفوذ والهيمنة على العالم ، حيث غدت هى القطب الأوحد . والعلم المفرد ، فى توجيه السياسة الدولية ، وفق مصالحها وأهوائها ، وتسخير الأمم المتحدة وأجهزتها ومؤسساتها لخدمة أهدافها ورغباتها . التى لا يجوز لأحد الخروج عنها ، أو التمرد عليها ، وإلا كان العقاب له بالمرصاد ، اقتصاديا وسياسيا ، بل وعسكريا عند اللزوم . . . أقول : هذا التفرد ليس قدرًا مفروضًا على البشرية ، يجب أن تتقبله طوعًا أو كرهًا ، صوابًا أو خطئًا ، عدلا كان أو جورا . إنما هو وليد ظروف معينة مرت بالعالم قابلة لأن تتغير .

ومن سنة الله : أن القوى لا يظل قويًا أبد الدهر ، وأن الضعيف لا يظل ضعيفًا أبد الدهر ، وكم رأينا من قوى أصابه الضعف ، وضعيف أدركته القوة ، وكم من عزيز ذل ، وذليل عز ، وفى التاريخ الحافل ، وفى الواقع الماثل : نماذج وأمثلة لا تخفى .

كما أن من عدل الله تعالى وحكمته فى خلقه : ألا يدع قوة واحدة تتحكم فى خلقه ، وتفرض عليهم سلطانها رغبًا ورهبًا . بل من سنته تعالى : التدافع بين الناس ، حيث يدفع ظلم بعضهم ببعض ، وشر بعضهم ببعض ، وإلا لتسلط عليهم الطغاة والجبارون فأهلكوهم ، أو ساموهم سوء العذاب . يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥١).

وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج: ٤٠).

وعلى ضوء هذه السنة قام الاتحاد السوفيتى الشيوعى عدة عقود بمدافعة التجبر الأمريكى ـ الأوروبى ـ الرأسمالى ، وأدى ذلك إلى قدر من التوازن استفادت منه الشعوب الضعيفة والأوطان المهضومة ، وإن كان كل من الطرفين الشيوعى والرأسمالى ظالما فى نفسه ، ولكن الله يدفع ظالمًا بظالم . كما قال الشاعر :

وما من يد إلا يد الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيبلى بظالم !

ومن هنا كان المسلمون قديما يدعون الله قائلين : اللهم اشغل الظالمين بالظالمين ، وأخرجنا من بينهم سالمين .

ومن الأمثال المأثورة : إذا اصطلحت الهرة والفار خربت دكان البقّال .

فمن مصلحة البشر ـ وخصوصًا الضعفاء منهم ـ اختلاف الأقوياء الظالمين وتعارض مصالحهم . وليس من مصلحتهم أن يتفقوا ، فإن اتفاقهم نقمة واختلافهم رحمة ـ كما ليس من مصلحتهم أن ينفرد أحدهم بالقوة ، ويزول خصومه من الميدان .

وبمقتضى هذه السنة لابد أن تظهر قوة ، أو قوى جديدة أخرى تنازع أمريكا وتغالبها وتدافعها ، حتى لا تفسد الأرض ، وربما كان من دلائل ذلك : الاتفاق الروسى الصينى ، الأخير والشهير ، الذى يؤذن ببروز قوة جديدة ، ربما لم تتكامل الآن كل أدوات قدرتها التى تنافس بها أمريكا ، ولكنها ـ على الأقل ـ تملك قوة عسكرية وبشرية هائلة ، فى مقابل التفوق التكنولوجى والاقتصادى الفارع الذى تتمتع به الولايات المتحدة الأمريكية .

وإذا كان من شأن التفرد الأمريكى ألا يستمر ، فكذلك شأن التحيز الأمريكى الدائم لإسرائيل ، فهو موقف غير أخلاقى ، وغير إنسانى ، وغير مبرر . وأحسب أن الشعب الأمريكي المضلل عن الحقيقة بصنع الإعلام المكثف الذى يوجهه ويسيطر عليه اللوبى

اليهودى فى أمريكا ، سيأتى يوم تنكشف فيه الغشاوة عن عينيه ، ويرى الحقيقة مجردة بلا تمويه ولا تزييف ، ويومئذ لن يكون مع الظالم ضد المظلوم ، ولا مع الغاصب ضد المغصوب ، ولا مع اللص ضد صاحب الدار .

الغياب العالمى :

وكذلك يقال فى الغياب العالمى ، فهو - فى الواقع - أثر للتسلط الأمريكى على العالم ، بسيف المعز وذهبه . وعدم وجود زعماء أقوياء يقولون كلمة الحق ، ولا يخافون لومة لائم ، ولا ظلم ظالم . فقد بات العالم قرية عمدتها رئيس الولايات المتحدة . ووزير الدفاع الأمريكى هو شيخ خفرائها ، ووزير الخارجية الأمريكى هو شيخ البلد فيها .

حتى أوروبا لم يعد لها تأثير يذكر فى سياسة العالم وقضاياه الكبرى ، وإن حاولت بعض دولها أن يكون لها موقف تميز عن أمريكا ، كما نرى فرنسا أحيانا .

أما كتلة (عدم الانحياز) فلم يعد لها علم مرفوع ، ولا صوت مسموع .

إن العالم الذى ربا عدد سكانه على ستة مليارات أصبح (أحجارًا على رقعة الشطرنج) تحركها أصابع أمريكا حيث تشاء ، لا تبالى بفيل ولا حصان ولا (طابيه) بل لا تعبأ بوزير ولا ملك . فهى تحيى منهم من تشاء وتميت من تشاء ، وقتما تشاء .

هل سيبقى العالم لعبة فى يد أمريكا إلى الأبد ؟ مستحيل ، وهل يستمر هذا الغياب العالمى طويلا ؟ ما أظن ذلك .

إن الظروف المساعدة لإسرائيل ـ عالميًا وإسلاميًا وعربيًا وفلسطينيًا ـ لن تبقى إلى الأبد ، فالدهر قلب ، والدنيا دول ، ودوام الحال من المحال ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ** ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

ومن المبشرات العاجلة : ما قضت به محكمة العدل الدولية فى قضية (لو كربى) التى اتخذت ذريعة ضد ليبيا ، وقد كان حكم المحكمة صفعة للولايات المتحدة وبريطانيا ، وانتصارًا للجمهورية الليبية ، مما يوحى بأن فى الزوايا خبايا ، وأن فى العالم رجالاً أحرارًا ، لا يُشترون ، ولا يخافون .

ربما انتقدَنا بعض رجال السياسة ، واتهمونا ـ نحن علماء الدين ورجال الفكر الإسلامى ـ بأننا (رومانسيون) نعيش فى مثاليات ونسبح فى بحار الأمانى والأحلام ولا نرضى بالواقع . وقد قال على بن أبى طالب لابنه : إياك والاتكال على المنى ، فإنها بضائع النوكى (الحمقى) .

وقال الشاعر :

ولا تكن عبد المنى ، فالمنى رؤوس أموال المفاليس !

وأود أن أقول لهؤلاء : إن من شأن الإنسان الحى أن يتخيل وأن يحلم ، وعلى قدر همة المرء وطموحه تكون أحلامه صغرًا وكبرًا .

وما لنا لا نحلم ، وقد حلم اليهود قبلنا بإقامة دولتهم ، وقد أقاموها فى ديارنا ، ولم يكن هناك أى شىء على الأرض يدل على ذلك ، وقد عاشوا حتى غدت أحلام الأمس حقائق اليوم .

فما علينا إذا حلمنا بالانتصار على عدونا ، واستعادة أرضنا وحقنا ، حتى تكون أحلام اليوم حقائق الغد ، ولا سيما وحقائق الوجود ، ووقائع التاريخ ، وسنن الله فى الكون كلها تؤيدنا .

كل ما ينقصنا هو (إرادة الصمود والتحدى) والتحرر من اليأس والضعف ، والثورة على الرضا بالهون ، والعيش الدون ، والقدرة على أن نقول بملء فينا ، وبأعلى صوتنا : لا ثم لا .

إننا إذا قلناها ـ مجتمعين ـ صارخة مدوية ، عالية متحدية ، ستزلزل قلوب أعدائنا ويكون لها ما بعدها . إن كل ما نريده اليوم : أن ننتصر على ضعف أنفسنا ، وأن نستعيد ثقتنا بالله تعالى ، ونستجيب لقول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٥).

* * *